آراء

«مطالب رفع علم الإقليم الكردي في شمالي العراق إلى جانب العلم العراقي فوق دوائر كركوك خلال أيام العمل قد تؤدي إلى إلحاق الضرر بمحاولات إحلال الاستقرار في العراق».

حسين مفتي أوغلو
المتحدث باسم الخارجية التركية

«السعودية تحرص على أن تعطي المرأة جميع حقوقها المدنية والإنسانية التي كفلها لها الدين الإسلامي دون أي تمييز أو تفرقة، وتذليل جميع العقبات في سبيل تحقيق ذلك».

سعد بن عبدالله السعد
نائب المندوب الدائم للسعودية لدى الأمم المتحدة

السياسيون العراقيون والمشروع الأميركي الجديد

د.ماجد السامرائي
كاتب عراقي

❏ واجه العراقيون خلال الخمس عشرة سنة الماضية النتائج الحقيقية للمشروع الأميركي والمشاريع الإقليمية، وما خلفته من آثار سلبية أدت إلى تدمير كل ما يتعلق بتفاصيل حياتهم. وأول النتائج الخطيرة هو التخريب الشامل الذي لحق بمرتكزات الدولة العراقية المدنية، إلى جانب فوضى الأمن وتعدد المرجعيات السياسية العقائدية، إضافة إلى تراجع التيار السياسي المدني أمام سطوة وهيمنة الإسلام السياسي بشقيه، وتلاشي التنمية، وانسحاب الطبقة الوسطى، والاعتماد الكلي على ثروات النفط، والفساد الذي تغلغل في مختلف مفاصل الحياة اليومية. والأهم من ذلك حالة الإحباط الشعبي العام بسبب التوترات الطائفية، وحضور التطرف بدلا من الاعتدال. آثار استثمرتها ووظفتها القاعدة وبعدها داعش لمصالحهما وأهدافهما، وخدمة لبرامج الصراع الطائفي في كل من العراق وسوريا وباقي دول المنطقة.

ظل الأميركيون، تحت إدارة الرئيس الأميركي السابق باراك أوباما، يراقبون الحالة العراقية عن بعد أمام حضور إيراني قوي وبأدوات نافذة في ظل فشل مشروع شراكة السلطة المعتمد على المحاصصة الطائفية. وكثرت في الآونة الأخيرة التحليلات والتساؤلات حول ما يريده الأميركيون من العراق، حكاما وسياسيين ومواطنين، وهل سينفذ الرئيس الجديد دونالد ترامب وعوده الانتخابية في مواجهة الإسلام السياسي، وعلاقة كل ذلك بالحملة الإعلامية الهجومية المتبادلة بين طهران وواشنطن.

> اليوم هناك مناخ مشحون وتنافس بين الأحزاب العراقية الكبيرة والكتل السياسية الصغيرة، ليس على صندوق الانتخابات فقط، وإنما على التعاطي مع البوصلة الجديدة لإدارة البيت الأبيض

يجب ألا تقود وعود ترامب بالتضامن مع الحكومة العراقية لاستكمال طرد داعش من الموصل حكومة العبادي وأحزاب الحكم إلى حالة من النشوة والاسترخاء، لأن هذه الوعود لن تغيّر من الموقف الاستراتيجي للإدارة الأميركية الجديدة.

لا تستطيع الأحزاب الكبرى الحاكمة في العراق التنكّر لهويتها العقائدية والسياسية، بل إن بعضها يعتز بذلك، ويثير ردود فعل إعلامية ضد أميركا. ظهر ذلك في مناسبات عديدة خلال الفترة الأخيرة، مع أن الأمر أكبر من ذلك بكثير، فالعراق والمنطقة مقبلان على تحولات هامة بناء على ما سيحصل من توافقات إقليمية (إيرانية وسعودية وتركية)، ودولية (أميركية وأوروبية). ونشهد خلال هذه الفترة استعدادات سياسية عراقية محلية للتعاطي مع سيناريو التغيير الذي تقوده أميركا، ومجمل انعكاسات تلك السياسة على الجارة إيران. وبغض النظر عن مصداقية التسريبات القائلة إن الأميركيين مقبلون على احتلال عسكري جديد للعراق، حيث سيتم نشر قواعد عسكرية في مناطق مختارة منه، أو ما يقال عن نوايا أميركية لمحاربة فصائل الحشد الشعبي أو بعضها، المهم هو الجهد السياسي العراقي الناضج للتعاطي مع المرحلة المقبلة والخدمة التي سيقدّمها للمواطن العراقي.

لن يحدث ترامب حالة تغيير دراماتيكية سريعة في العراق مثلما يتوقع البعض، ولكنه، ومن خلال أدواته السياسية والاستخبارية، سيعمل على عدة خيارات سياسية، من بينها تشجيع التيار الليبرالي العراقي كبديل لتيار الإسلام السياسي، ومساندة مختلف أطياف هذا التيار دون الاعتماد على طيف واحد منه يعتقد أنه الطيف الأكبر، فجميع دعاة المشروع الليبرالي يقفون على خط مشروع واحد. ولا يتوقع لإدارة ترامب أيضا أن تسعى إلى إعادة إنتاج الفاشلين سياسيا والمتورطين في الفساد.

ولا نعتقد أن الأدوات الأميركية في العراق تفتقد الملفات الشخصية والوظيفية لجميع القيادات والكوادر الحزبية والحكومية العراقية، فلم تعد المعرفة الأميركية في العراق "سياحية" مثلما كانت عشية 2003، وأصبحت لدى أجهزة المخابرات الأميركية –وهذا ليس سرا– القدرة على مراقبة ومتابعة القادة السياسيين العراقيين كبارا وصغارا وعلى التحكم بهم، ولدى هذه الأجهزة وثائق كاملة بالصورة والصوت عن جلساتهم السياسية والشخصية ومخططاتهم القريبة والبعيدة.

اليوم هناك مناخ مشحون وتنافس بين الأحزاب العراقية الكبيرة والكتل السياسية الصغيرة، ليس على صندوق الانتخابات فقط، وإنما على التعاطي مع البوصلة الجديدة لإدارة البيت الأبيض. والصدمة الأولى للسياسيين العراقيين التقليديين، داخل العملية السياسية وخارجها، أنهم لن يسمعوا على طاولة الحوار مع موظفين مدنيين وعناصر استخبارات في السفارة الأميركية ببغداد، ما كانوا يسمعونه خلال السنوات الماضية من لغة إطراء وتمجيد.

هناك تحديات واستحقاقات جدية أمام الطبقة السياسية لا تكفي الشعارات العامة للإيفاء بها، فالظرف الحالي مختلف ومن أولى معايير الفطنة السياسية التعاطي مع المتغيرات، بل لا بد من قرارات ومواقف تترجم إلى أفعال، فقصة "الفساد العام" مثلا ستأكل من جرف شعبية أحزاب السلطة والبرلمان وجمهورهما.

المشكلة الكبيرة التي تواجه قادة العملية السياسية هي عدم الاستعداد للتخلي عن المكاسب، وعدم الاعتراف بما خلفته السياسات التنفيذية من آثار مدمرة في حياة الناس، وما تركته إمبراطورية الفساد من نهب شامل للمال العام، وتخريب متعمّد للقيم العراقية الأصيلة، طالت شرايين منظومة الخدمات الإدارية ومن معها من موظفين عموميين يفترض أن يقدموا ويسهلوا خدمة المواطنين دون مقابل. لقد أصبحت الرشوة بين صغار الموظفين حقا مكتسبا، وهناك فنون للمخادعة والتحايل على القانون.

قد يشعر قادة الأحزاب الكبرى أنهم أكثر حرية في المناورة من رئيس الحكومة العبادي، الذي ما أن تحين ساعة الحساب حتى تعلق جميع الأعباء على رقبته، ولهذا عليه إن أراد أن ينجو بنفسه وينجو بالعراق، ولو أن وقت ذلك قد أصبح متأخرا، أن يتخذ إجراءات حاسمة وفق الصلاحيات التي يمتلكها ويشرع في تهديم جدران معمار الفساد والجرائم المنظمة، ويقرّ سيادة قانون الدولة. ولا بد أيضا من إطفاء مقولة الشارع العراقي البغدادي التي يتم تداولها كرد على جميع التساؤلات "لا توجد دولة ولا يوجد قانون"، ولكن العبادي بعد تمزق مظلة "الانتصار على داعش" لن تتاح له فرصة الاستجابة الفورية للاستحقاقات المطلوبة، وهناك قيادات داخل "البيت الشيعي" لا تجد فيه القدرة والكفاءة والحسم السياسي رغم إمكانياته الهائلة.

مشكلة الأحزاب الكبرى هي إصرارها على اللعبة القديمة التي لم تعد تصلح في ظل المستجدات المحلية والإقليمية، ولا توجد حاليا مؤشرات واضحة على أنها تمتلك مشروعا سياسيا ناضجا وواضحا لمواجهة التطورات المحتملة. هناك جدل داخل أروقة تلك القيادات يمزج بين حالة القلق على المقبل من الأحداث، وبين فكرة التعامل بإيجابية مع المشروع الأميركي الجديد، باعتقاد مفاده أن قادة تلك الأحزاب لديها خبرة لوجستية متراكمة منذ عهد الحاكم بريمر مرورا بالقيادات العسكرية والاستخبارية الأميركية الميدانية، تمكنها من التعاطي مع المستجدات. أما على الصعيد السياسي فتعتقد تلك الأحزاب أن عدتها في الانتصار على داعش ستفيدها كبطاقة مرور للبقاء في السلطة.

مثل هذه التصورات تبدو غير فاعلة في المراحل التالية لهزيمة داعش، لأن الحصيلة النهائية بالنسبة إلى المواطن العراقي هي: ماذا قدمت له تلك الأحزاب، وما هي الحالة التي يعيشها اليوم؟ كما أن أركان إدارة ترامب تتشكل من الصقور المتشددين الذين لا يمانعون في تبني الخيارات العسكرية إن تطلب الأمر ذلك. ومما يزيد صورة الوضع السياسي ضبابية وتعقيدا هو يأس القيادات السنية من العملية السياسية وأحزابها، حيث أصبح لديها شعور ممزوج ببعض التطمينات الأميركية والسعودية والتركية، بأن سيناريو ترامب المتوقع سيخدمها ويحول حماسها لإقامة "الإقليم السني" حقيقة على الأرض.

الأهم من ذلك، هناك تيار ليبرالي من خارج السلطة ينمو لديه التفاؤل بالمشروع الأميركي الذي تنضج تفاصيله تزامنا مع حسم المعارك في كل من الموصل والرقة، ولدى قادة هذا التيار شعور بأن الإدارة الأميركية ستدعمهم في الأيام القليلة المقبلة، وأن المرحلة المقبلة هي مرحلة الانسحاب المنظم وفق التعبير العسكري لأحزاب الإسلام السياسي.

الفرصة الذهبية الآن تقع على عاتق ناشطي المشروع الوطني العراقي الليبرالي، ممن ينتظمون داخل كتل وأحزاب صغيرة لها مستقبل واعد، أو فئات من السياسيين والمثقفين المستقلين الذين لا غبار على نزاهتهم ووطنيتهم، وتقع عليهم جميعا واجبات شعبية ونخبوية واسعة للتعايش مع حاجات العراقيين الحقيقية، ودعم الجهود لإنقاذ الملايين من ضحايا داعش الذين تعرضوا لكوارث النزوح عن ديارهم، وفضح أساليب المتاجرة السياسية بهذه القضية الوطنية الكبرى، والتعاطي مع القضية الأمنية العراقية بعيدا عن روح الانتقام، وتحفيز ودعم المبادرات الشعبية التي تعمّق روح المواطنة والتكافل الاجتماعي بعيدا عن المزايدات، وذلك من أجل أن يهتدي الأميركيون إلى حقيقة أن في العراق قوى سياسية وطنية نظيفة غير طائفية يمكن الوثوق بها في المرحلة المقبلة.

المرأة عقدة السلفيين وغوايتهم

سعد القرش
روائي مصري

❏ نسفت الثورات العربية طبقات من الغبار والأوهام، إذ فاجأت الكثيرين، خصوصا المستشرقين المحليين، بوجود الملايين من السلفيين. وطرح الذين عاشوا أعمارا من الاستعلاء الثقافي والاجتماعي سؤالا ساذجا: من أين جاءت كائنات الجلابيب القصيرة واللحى المصبوغة، المرسلة من غير تهذيب؟ ولم يكن السلفيون إلا نحن، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وهم مغتربون نفسيا عمّن حولهم، ويلتمسون العزاء في حديث "بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء".

لم يفاجئني السلفيون إلا بنبرة الصلف وابتسامات لزجة مصطنعة لا تخفي الزهو بما يظنونه درجة أعلى من الإيمان عن غيرهم من المسلمين. كانوا متواضعين يعلنون تجنب السياسة، ويستشهدون بقول الإمام محمد عبده "لعن الله السياسة وساس ويسوس وسائس ومسوس، وكل ما اشتق من السياسة فإنها ما دخلت شيئا إلا أفسدته". ويكفي الاستشهاد بكائن اسمه وجدي غنيم، سمعت أشرطته في الثمانينات، وكان في مرحلة الاستضعاف يؤدي دور واعظ عصري خفيف الظل، وكشفت الثورة كراهيته للمختلف في الدين والتوجّه، وأزاحت قناعا عن غلظة ملامحه وقتامة روحه، إذ يخوض في السياسة خوض حاطبي الليل فلا يفرق بين حكومة يعارضها ووطن لا يصح التحريض عليه، وجيش يعلن أنه "أنجس أجناد الأرض. والله العظيم أنجس وأحقر وأقذر أجناد الأرض"، داعيا إلى السيطرة على مواقع الجيش وسرقة السلاح.

أنساني هذا "النموذج السلفي" ما نويته من البدء بإكبار أم المؤمنين خديجة بنت خويلد. كانت أفضل نساء قومها عقلا ونسبا وثروة، ولم تستجب لضغوط سادات قريش للزواج، ولم تمنعها كبرياؤها من قرار الزواج بشاب خبرت أمانته، وحدثت صديقتها نفيسة بنت منية بما في نفسها، فذهبت إلى محمد تفاتحه في الزواج من خديجة. في "اللغط" الإسلامجي والعلماني بمناسبة اليوم العالمي للمرأة يتم تجاهل اسم السيدة خديجة، فذكرها ينسف تصورات "فقهية" جاهزة، ولن أعود في هذا الشأن إلى كتب التراث، وإنما إلى بعض مما عثرت عليه في مكتبة صغيرة تشكلت قبل التحاقي بالجامعة، وتلف منها ما تلف، وضاع ما ضيعه عبث موجات من أطفال العائلة، فضلا عن استعارات تستبيح عدم رد الكتب، ولو كانت تنشد إقامة ما يسمى الدولة الإسلامية والشريعة وفي المقدمة منها امتهان المرأة. وسأتفادى التعليق على ما أنقله من نصوص:

في كتاب "100 سؤال وجواب في الفقه الإسلامي" (1983) للشيخ محمد متولي الشعراوي، إعداد عبدالقادر أحمد عطا، سؤال عن حكم زواج غير المحجبة "امرأة تقيم فروض دينها، ولكنها لا ترتدي الزي الإسلامي، وهي مقتنعة به، ولكنها لا تقدر عليه، فهل يجوز الزواج بها؟". وبدلا من رفض السؤال وأنه غير لائق، جاء الرد "فاظفر بذات الدين تربت يداك"، أما حكم الزواج بها فجائز.

هل يختلف هذا عن دعوة صبحي صالح محامي الإخوان، في مؤتمر للجماعة بالقاهرة يوم 20 مايو 2011، شباب الإخوان للزواج من "الأخوات"؛ لأن "زواج الأخ من بنت غير إخوانية، ولو كانت محترمة ومتدينة ومن بيت طيب، يعطل النصر". وعزز كلامه بآية "أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير"، وأحكم النص قائلا إن الأدنى هو غير الأخوات.

في كتاب "هذا حلال.. وهذا حرام" (1980) لعبدالقادر أحمد عطا بضع صفحات عما يحرم كشفه من المرأة وما يباح، وبعد سلسلة من العنعنات خلص إلى عدم جواز كشف الوجه والكفين وضرورة ارتداء "الجلباب، وهو فوق الملابس العادية للمرأة وفوق الخمار، وهو يستر جميع بدن المرأة من أعلى رأسها حتى قدميها، ولا تظهر منه سوى عين واحدة".

لم أعثر على كتاب "جريمة الزواج بغير المسلمات" لعبدالعال محمد الجبري، ولكني وجدت كتابه "المرأة في التصور الإسلامي" (1981)، وفيه يقول إن المرأة لا يجوز لها أن تظهر لأعمامها وأخوالها إلا الوجه والكفين؛ لأنهم "يصفون لأبنائهم ما يرونه من جمال بنات إخوتهم حرصا على تحبيبهن إلى قلوبهم ليتزوجوهن، فيهيجون جنسيا".

في كتاب "مشكلات الشباب الجنسية والعاطفية تحت أضواء الشريعة الإسلامية" (1984) لعبدالرحمن واصل تحذير من "دعاة الانحلال والتحلل، فإنهم يسرقون الفضيلة.. فهم اليوم يدعون إلى تعليم المرأة، فإذا تم ذلك، فدعوة إلى السفور"، وسيصل الأمر إلى "الشذوذ الجنسي.. وعبيد الغرب عندنا في ديار الإسلام قد نجحوا في هذا المضمار نجاحا لا نظير له". وفي هذه النتيجة المتخيلة اتهام للإسلام بالهشاشة، وللمسلمين بقابلية التأثر بأي دعوى. والمجتمع لدى المؤلف يشبه المرأة تلك المخلوقة الناضرة المتألقة، الجوهرة المكنونة، "القارورة في ضعفها لا تستطيع وحدها أن تكابد مشقات السفر وتبعاته، فهي في حاجة إلى من يعينها ويحميها من سباع الطريق وذئابه".

في كتاب "منكرات الأفراح وآثارها السيئة على الفرد والأمة" (1984) يذكر محمود مهدي الإستانبولي أن نكاح الكتابية مذموم؛ "لأنها تأكل لحم الجنزير وتشرب الخمر وتربي أولادها تربية بعيدة عن الإسلام"، وأنها إذا أرادت الذهاب إلى بيت عبادتها فيجب أن يكون ذلك خفية عن أولادها، "وإذا علم الزوج أنها لا تتقيد بذلك، فيحرم عليه الزواج بها".

في كتاب "فتاوى وأقضية أمير المؤمنين عمر بن الخطاب" (1985) يتجاهل محمد عبدالعزيز الهلاوي التطور الأخلاقي البشري، فيورد أسئلة تدخل في باب البحث التاريخي، ومنها "هل للمرأة أن تتسرى بعبدها؟" ويتفانى في الإجابة فيورد قول امرأة إنها ظنت أن الغلام يحل لها كما يحل للرجل ملك اليمين، ولكن عمر عاقبها بتحريم ما أحل الله، "والله لا أحللك لحر بعده أبدا"، وأمر العبد ألا يقربها. وفي واقعة أخرى ضرب العبد، وأمر ببيعه.

هذه الكتب، المنتزعة من مجلدات تراثية، تلد كتيبات توزع مجانا في المساجد وتؤسس النظرة السلفية المهينة للمرأة، وتتبناها نخبة دينية تتسع لتشمل كل من قرأ كتابا في الفقه، فيعلن نفسه فقيها، وينشر شرحا لمتن كتبه "فقيه" سابق. ومن هذه الكتب، ومع حرص السلفيين على جني ثمرة ثورة كانوا يحرّمون الاشتراك فيها، عقد حزب "النور" اليميني عام 2012 "المؤتمر النسائي الأول" بحضور ياسر برهامي وعماد عبدالغفور وحازم شومان، في غياب النساء ولو بالنقاب.

على الجانب الآخر، لا يقل امتهان نخب علمانية للمرأة، وهذا حديث ذو شجون.

> الكتب المنتزعة من مجلدات تراثية، تلد كتيبات توزع مجانا وتؤسس النظرة السلفية المهينة للمرأة، وتتبناها نخبة تتسع لتشمل كل من قرأ كتابا في الفقه، فيعلن نفسه فقيها

للمشاركة والتعقيب:
opinion@alarab.co.uk